3

خلاف حول الانفراج

إذا كان هـاري ترومـان مهندس الأوضاع الجوهرية التي جعلتنا نكسب الحـرب الباردة، وقدم رونالد ريغـان الدافع لإنهاء هذه اللعبة. فإن ريتشارد نيكسون كان الرجل المحوري في المرحلة ما بين الفترتين. ففـي ظـل فترة رئاسته وضعت الخطـوط العريضة للسياسة الأمريكية في العقديـن الأخيرين من الحرب الباردة إلى جانب التخلص من مأساة فيتنام.

ففـي نهايـة فترة رئاسة نيكسون سحبت الولايـات المتحدة قواتها من فيتنام بشـروط مُشرّفة. وأُزيل تهديـد الكتلـة السوفييتية الذي ظـل يخيم على برلين على مـدى 25 عاماً باتفاقية مـع السوفييت تضمن الوصول إلى تلك المدينة المحاصرة. وبدأت عملية تخفيض الأسلحة الاستراتيجية مع الاتحاد السوفييتي. وأُشركـت الصيـن فـي دبلوماسية الـدول الكبـرى، ولا سيما من الجانـب الأمريكي. تلـك الخطوة حولت الموقـف الجيوسياسي لموسكو بين يـوم وليلة لأنها عززت تحالفاً قوياً لجميع قـوى العالم العظمى ضده. وأمكن التغلب على حرب الشرق الأوسط وتآكل الدور السوفييتي السياسي والاستراتيجي في تلك المنطقة تدريجيـاً. وأصبحـت عملية السلام بين إسرائيـل وجيرانها العرب تحت الرعايـة الأمريكية قيد التنفيذ. ولعـل الإسهام الأكبر لفترة ولاية نيكسـون أن معظم العلاقات والاستراتيجيات انطلقت أثناء ولايته وظلت بمثابة سياسة ثابتة لجميع من خلفه من رؤساء حتى كتابة هذه السطور.

مـن الصحيح أيضاً أنه في صيـف 1974، عندما استلم جيرالد فورد الرئاسـة، بدت سياسة نيكسون الخارجية متناقضة كشخصيته. كان الليبراليون يلومون الرئيس ويلومونني بسبب عدم الاهتمام المناسب بحقوق الإنسان. وكان المحافظون ينتقدون الإدارة لتسوية الخلافات مع السوفييت باسم «الانفراج» الذي كان في رأيهم سياسة سيئة بتعبير فرنسي.

كل انتقـاد من هـذه الانتقـادات كان يعود إلى القلـق من شخصيـة نيكسون الغامضـة، ولكن السبب الغالـب كان سياستـه الخارجية التي أثارت تحديـات فلسفية جوهرية. لقد سعى نيكسـون إلى أن يُخلّص الولايـات المتحدة مـن فيتنام بشروط كان يعتقد أنها مُشرّفة في وقـت كان فيه معظم المثقفين وكثيرين

مـن السياسيين يريدون الخروج مـن الهند الصينية بدون شروط أساسـاً، وكان المحتجون الراديكاليون يُفضلون الإذلال على الشرف، أو بعبارة أخرى إذلالاً بدون كرامة.

والأهـم مـن ذلك بالنسبة إلى نيكسون أنه كان يعمل على تحويل دور أمريكا في العالم من الهيمنة إلى القيادة. فخلال معظم فترة ما بعد الحرب، كانت الولايات المتحدة متفوقة بسبب هيمنتها النووية وقوتها الاقتصاديـة، وفـي الوقت الذي استلم فيه نيكسـون السلطة كان احتكارنا النووي يتضـاءل، وكانت أوروبا تستعيد حيويتها، ودخلت آسيا المسرح الدولي، وأفريقيا تعج بحركات الاستقلال. الهيمنة تقوم على القوة، ولكـن القيادة تتطلب بناء الاجماع. ولكن محاولة إيجاد التوازن ما بين المكافآت والعقوبات، أو المحاسن والمسـاوئ، لا ينفصـل عن بنـاء الإجماع، جرى ضـد «الويلسونية» السائدة، التي حاولـت أن تخلق نظاماً أخلاقياً عالمياً من خلال التطبيق المباشر لفضائل أمريكا السياسية بدون أية تنازلات «للواقعية».

وخلال عقدين تاليين وفيما كانت تكتب هذه السطور؛ كثير من موضوعات جدل السبعينات قد عادت إلى الظهور من جديد في المناقشة المعاصرة حول دور أمريكا في العالم، ولا سيما سياستها تجاه الصين وبهـذا المعنـى فإن النزاع حول الانفراج مـع الاتحاد السوفييتي الذي شغل إدارة فـورد كان سابقاً للجدل المعاصر لفترة ما بعد الحرب الباردة حول توجه السياسة الأمريكية الخارجية.

ماذا كان الانفراج؟

تعكـس السياسة الخارجية للدولة حتمـاً مزيجاً من قناعات زعمائها وضغـوط الوسط المحيط ومن أجـل فهـم مقاربة إدارة نيكسون لعلاقـات الشرق والغرب ـ والخلاف الذي ورثه فـورد ـ من الضروري أن نصف الموقف الذي وجد نيكسون نفسه فيه.

دخـل نيكسـون إلى الرئاسـة وسط أشد أزمات السياسـة الخارجية في التاريـخ الأمريكي. فقد كانت هناك قوات أمريكية تعدادها ينوف على: 540 ألف جندي تقاتل في فيتنام، وكانت بلادنا تمزق نفسها وفق مـا وصفه البروفيسور ولتر أ. ماك دوغال من جامعة بنسلفانيا بذكاء بـ «حرب المجتمع العظيم»[1]. وكان يعنـي بذلـك أن فيتنام كانت الحرب الأمريكية الأولى التي خاضتها أمريكا بدون هدف عسكري. بالأحرى كان الهـدف الاستراتيجـي ألا نخسـر كي نعطي فيتنـام الجنوبية الوقـت لخلق مؤسساتهـا الديمقراطية وبرامجهـا الاجتماعيـة التي ستكسب حـرب العقول والقلـوب لسكانها. مثل هذا الهـدف بالنسبة إلى بلد منقسـم استقل من عشر سنـوات فحسب، وفي مجتمع حكمه الاستعمار لمدة قـرن، كان تحدياً هائلاً في حـد ذاتـه. من المؤكد أن تلك العملية كانت تتطلب وقف حرب مدمـرة كانت تفوق القدرة النفسية لتحمل الشعب الأمريكي.

إيقـاف مثـل تلك الحرب كان أمـراً عسيراً ومرّاً فـي أحسن الظروف. فقد وجدت القـوات الأمريكية نفسهـا وسط ثلاثة أرباع مليون جندي فيتنامي جنوبي مـن القوات الحليفة وقوة مماثلة متسللة من الفرق

الفيتنامية الشمالية وقوات حرب العصابات المحلية. وانسحاب مفاجئ وحيد الجانب، وهو ما لم يرحب به أو يقبله من سبقونا في الحكم، والمتظاهرون المعادون للحرب الذين تعالت أصواتهم، كان من شأنه أن يضع القوات الأمريكية في مصيدة ما بين الحلفاء الرافضين للخيانة، والأعداء المصممين على الفوز والسيادة.

ومع هذا لم يكن الجانب الفني من الانسحاب هو التحدي الأشد، بل المسألة الأخلاقية حتى لو طرحت في مظهر واقعي. فنيكسون لا يمكن أن يتخلى عن عشرات الملايين الذين وضعوا آمالهم في أيدينا، اعتماداً على كلمات ووعود اثنين من الرؤساء الأمريكيين الديمقراطيين السابقين. كنا نناقش الأمور على أساس المصلحة القومية، وهي أننا كزعماء «للتحالف الغربي»، فإن مصداقيتنا تجاه الصديق والعدو على حد سواء باتت في خطر. ولكن وراء الاعتبارات «الواقعية» كان نيكسون يقلص من الاعتبار الأخلاقي الذي كان يحدّ من رغبته القوية في إخراج الولايات المتحدة من الهند الصينية، كان مستعداً، لإبداء مرونة كبيرة في المفاوضات مع هانوي ـ تفوق ما كان قد طُرح سابقاً حتى من قبل «الحمائم» في عهد رئاسة جونسون[2]. كان ثمة تنازل واحد لا نستطيع أبداً أن نقدمه على أساس جيو ـ سياسي، والأهم من ذلك على أساس أخلاقي ـ أن نفرض حكومة شيوعية على أناس انضموا إلى قضية معاداة الشيوعية ثقة منهم بكلمة أمريكا. ولكن هانوي لم تكن لتتزحزح تجاه هذا الطلب والذي كانت تصر عليه حركة السلام على نحو متزايد.

لقد أصرت الحركة التي تدعى بحركة السلام، التي تغطي نفسها بستار الأخلاقية، على أن هناك فقط مشكلة أخلاقية واحدة، وهي السلام بأية شروط، وأن مصير السكان لا يتعارض مع ذلك الهدف (أو بصورة فلسفية أكثر، وهي أن شعوب الهند الصينية ستكون في حال أفضل إذا تركناهم وشأنهم). وفي مطالبة ملحة وصلت إلى حد الانسحاب الأحادي الجانب وغير المشروط، سعى المحتجون إلى فرض وجهات نظرهم عن طريق المظاهرات الجماهيرية التي كانت ترمي إلى زعزعة الحكومة. كان المحتجون يرون في اعتبارات الشرف والمصداقية مجرد اعتبارات فارغة. أما السلام «المُشرّف» لتوحيد البلاد فقد كان النتيجة التي حالت حركة الاحتجاج إلى عدم الوصول اليها على وجه الدقة. وفي رأيها أن الغرور الأمريكي قد سبب المأساة في الهند الصينية. ورفضت الدور الأمريكي في المحافظة على التوازن الدولي بوصفه شعاراً للحصول على الهيمنة، كما رفضت أن يكون لنيكسون حق أخلاقي في التذرع بعبارة «الشرف».

من المؤكد أن أعضاء «المؤسسة» لم يذهبوا أبداً بعيداً هكذا. لقد شلّهم عبث ما اقترفوه، وهذا ما جعلهم يرغبون في إبعاد حرب فيتنام من ضمائرهم، وحجب أخطائهم في فقدان جماعي للذاكرة. وكانت النتيجة العملية لتنازلهم العاطفي أنهم لم يؤيدوا أي موقف أمريكي تفاوضي ترفضه هانوي، وهذا ما حرم المفاوضين الأمريكيين من أرضية يستندون عليها.

عند كتابة هذه السطور نما جيل ليس لديه ذكريات شخصية حول عواطف تلك الفترة. بعض الباقين منـه قمعوا ذاكرتهم، فيمـا كرس آخرون أنفسهم لتاريخ منقح. ولكن حقيقة أن كثيرين، إن لم يكن معظم نُخـب السياسة الخارجيـة الأمريكية كانوا يؤيدون ــ أو يقبلون ـ بتخلي أمريكا عـن المقدمات المنطقية لسياسة الحرب الباردة السابقة التي أثرت على التطور المستقبلي لسياسة خارجية أمريكية بعمق.

تزامنـت ضغـوط خارجية مع الضغوط الداخليـة. معظم حلفاء أمريكا شمـال الأطلسي كانوا متحفظين بشدة تجاه الحرب في الهند الصينية. وعندما استلم نيكسون السلطة كانوا قد بدأوا يتساءلون إذا ما كان ولع أمريـكا بالقتـال يهدد أمنهم بدلاً من أن يحميه. وقد شعر عدد من الزعماء الأوروبيين بحرية تامة في تقديم أنفسهم لجماهيرهم كرواد للسلام مهمتهم الأساسية تخفيف الصلف الأمريكي في إدارة الحرب الباردة.

كل ذلـك كان يحـدث في أقل من سنة بعد غزو الاتحاد السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا واحتلالها من أجل الإطاحـة بنظام شيوعي يطمح إلى نوع من الاستقلال الذاتي عن موسكو. وأعلن ليونيد بريجينيف المبدأ (الذي عُرف باسمه) الذي أكد على حق موسكو في فرض الأرثوذكسية العقائدية في العالم الشيوعي. كان الكرملين، معززاً بترسانة نووية متنامية بسرعة، يرسم صورة للتشدد الأيديولوجي والقوة العسكرية.

هكذا كانت بيئة الجمود، والتوتر، وخيبة الأمل التي ورثها نيكسون. وبالنسبة لنا كان شن حملة صليبية واسعـة النطـاق ضد السوفييت ـ وهو ما لامنا على عدم اتخـاذه بعض منتقدينا فيما بعد ـ لا يؤدي إلا إلى أن تفلـت أزمتنـا الداخلية من بين أيدينا. ذلك أنـه عند استلام نيكسون السلطـة، كان الشعب الأمريكي قـد أُنهك جـراء عشرين سنة من الحرب الباردة، وخيبات الأمل المتزايـدة في فيتنام. لقد عاصر أزمتي برليـن، والحرب الكورية، والغزو السوفييتي لهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وأزمة الصواريخ في كوبا، وفقد ما يزيد على 35 ألف ضحية في الهند الصينية. لقد تعب الأمريكيون من الدفاع عن حدود بعيدة ضد خصم عقائدي لا يبدو قابلاً بالمصالحة في نزاع مستمر لا تلوح له نهاية في الأفق.

كان خصـوم نيكسون، طيلة فترة ولايتـه، يصورونه كمحارب متمسك بعنـاد بالتقاليد البالية للحرب البـاردة. أما وقد أصبـح الآن رئيساً فقد راح الليبراليون الذين كانـوا يسيطرون على الكونغرس والاعلام يحثونـه على العمل على إنهاء الحرب الباردة بسياسات كما لو أنه كان صنيعتهم. وكان ثمة إجماع عريض يتمتـع بكثير من المؤيديـن داخل السلك البيروقراطي يضغط علـى الإدارة الجديدة للمبادرة بمفاوضات فوريـة مع موسكو حـول التجارة والتبادل الثقافـي والعلمي، ومراقبة التسلح قبـل كل شيء. وكل فقرة من هـذه الفقـرات، كما أخبرنا خصوم نيكسـون التاريخيون بإصـرار، ينبغي متابعتها بحسـب جدواها، وأن أيـة اتفاقيـة مع السوفييـت، ولو كانت محدودة سوف تسهـم في التخفيف من شكـوك السوفييت وبالتالي تقليص خطـر الحرب. وكان أفضل اقتـراح في هذا الصدد عقد اجتماع قمة «للتعـارف» ما بين الزعماء السوفييتيين والأمريكيين.

بقـي المحافظـون صامتين. فبعـد أن صُدموا بحـرب فيتنام والغليـان الداخلي، لم يعـد بوسعهم أن يجابهوا الهجوم الليبرالي. وأفضل مثال على ذلك رد فعل صديقي وليام باكلي، الذي أثق به، عندما طلبت منه أن يساعد في حشد الرأي العام المحافظ لمجابهة حركة الاحتجاج المعادية لحرب فيتنام، قال: «لقد تأخر الوقت كثيراً. فالفرس قد غادر الاسطبل».

ثمـة حالـة أخرى تُذكر بهـذا الصدد وهي مذكرة من نائـب وزير الدفاع ديفيد بـاكارد في أوائل عام 1970. فبعد أن غادر البنتاغون، أوصى باكارد بمبادرة جديدة وعاجلة لضبط التسلح من أجل الوصول إلى اتفاقيـة فـي منتصف شهر تشرين الأول، أو شهر تشرين الثاني على الأقل. وإذا لم نفعل ذلك فإن «ضغط الكونغرس على الميزانية القومية سيكون محتملاً كي يُحدث تخفيضات واسعة في البرامج الدفاعية، بما في ذلك القوات الاستراتيجية»[3].

فـي غياب قـوة موازية للإجمـاع الليبرالي كان الموضـوع الدائم لخطاب الجمهور هـو السلام: كيف نحققـه في فيتنـام، وكيف نحافظ عليه فـي العالم كله من خـلال مفاوضات فورية بيـن الشرق والغرب، وكيـف نحميـه من النزاعـات المتصلبة لإدارة نيكسون. فـي ذلك الوقت كان المحافظـون الجدد، الذين راحـوا يتهموننـا فيما بعـد بالضعف أمام الشيوعية، مـا يزالون في الوصف الراديكالـي يضيفون صوتهم إلـى المطالبة بالتسوية. وهكذا بات نيكسون يواجه تحديين: -1 ترتيب الخروج من فيتنام بطريقة تحفظ القيـادة الأمريكيـة، وتنفذ التزاماتنا الأخلاقية. -2 تحديد دور الولايـات المتحدة في فترة ما بعد فيتنام تتجنب التطرف ما بين التنازل وإظهار البطولة.

ورطت الويلسونية الولايات المتحدة في الهند الصينية بوسائل السلوكيات الكونية التي أثبت نجحاتها فـي أوروبـا وهـي تطبق الآن حرفياً في آسيـا. وتعني هذه أن بنـاء الديموقراطية يمكـن أن يتمَّ في الإطار الزمني ذاته كسلوك حرب العصابات؛ صحيح أنه لا يمكن كسب هذه الحرب بل يحافظ عليها من الضياع، تجرنـا إلـى نزاع لا نهاية عسكرية له. والنسخـة التقليدية المحافظة من الويلسونيـة لاتمدنا بثقل فلسفي موازن. رؤيتها تجاه نوع من المنازلة النهائية (الكارثية) مع الاتحاد السوفييتي جعلتنا عديمي المرونة في وجـه تحديات الحرب الباردة الفعلية التي كان خصومنا يحرصون بعناية على ابقائها دون عتبة المواجهة الشاملة.

ترفضـ الويلسونيـة السلام من خـلال توازن القوى لصالـح السلام عبر اجماع أخلاقـي. إنها تعتبر السياسـة الخارجية صراعـاً بين الخير والشر، فـي كل مرحلة منها ينبغي على أمريـكا أن تهزم الأشرار الذي يتحدون نظام السلام.

وإذا مـا انتصرت تستطيع الولايـات المتحدة أن تكرس نفسها لتعزيز التوافـق (بصيغته الأممية) أو تحصد فضائلها (بالصيغة الانغزالية) حتى تنشب الأزمة المنفصلة التالية. مثل هذه السياسية الخارجية

تميل إلى الانقسام إلى سلسلة من المشاهد وليس كسلسة تتطلب انتباهاً وتكيفاً دائمين، إنها مسألة مطلق وليس صياغة الواقع بوسائل الفروق الدقيقة.

عملت إدارة نيكسون من أجل مقاربة مختلفة. فنيكسون رغم إعجابه بودرو ويلسون فإن خبرته الشخصية قادته إلى أن الأفكار العظيمة يمكن أن تتحقق في هجوم أيديولوجي كبير. كلانا، نيكسون وأنا، وضعنا قناعاتنا الراسخة المعادية للشيوعية في خدمة استراتيجية شاملة مصممة لتحقيق هدفنا على مراحل. كنا ننظر إلى السياسة الخارجية على أنها عملية مستمرة ليس لها نهاية، خلافاً للرؤية السائدة لدى الليبراليين والمحافظين، الذين كانوا يسعون إلى سلسلة من الذرى، كل واحدة منها لها طابعها الخاص وتتحاشى الحاجة إلى جهد متواصل.

لم نكن نرفض لا نيكسون ولا أنا الدور الحاسم للمثال الأمريكي الديمقراطي في وضعنا الداخلي أو في إعطاء الدافع لسياستنا الخارجية. ولكننا لم نكن نؤمن أن المثالي يمكن أن يترجم إلى نوع من الصورة الفوتغرافية للسياسة الخارجية اليومية. كنا نحتاج إلى قيمنا لتوفير قوة معنوية للعمل في وجه الخيارات الصعبة والنتائج غير المؤكدة. ومن أجل تجنب التوتر الشديد أو التنازل تحتاج الولايات المتحدة إلى مرشد لمفهوم المصلحة القومية. وهذا ما نلمسه في أول تقرير سنوي حول السياسة الخارجية قُدّم إلى الكونغرس في شهر شباط عام 1970:

> هدفنا في البداية دعم مصالحنا على المدى البعيد من خلال سياسة خارجية قوية. وبقدر ما تعتمد هذه السياسة على تقويم واقعي لمصالح الآخرين كان دورنا في العالم أكثر فاعلية. نحن لسنا منخرطين في العالم لأن لدينا التزامات، نحن لدينا التزامات لأننا منخرطون في العالم. مصالحنا هي التي تصوغ التزاماتنا قبل أي شيء[4].

هذه الاعتبارات العامة أدت إلى استراتيجية تتضمن العناصر التالية:

1 – الخروج من فيتنام بشروط مُشرّفة.

2 – الحد من معارضة حركة الاحتجاج تجاه الهند الصينية.

3 – التمسك بقضية السلام من خلال استراتيجية تبين للشعب الأمريكي أننا برغم الحرب الباردة سوف نبذل قصارى جهدنا للتحكم في مخاطرها، وتجاوزها بالتدريج.

4 – توسيع خارطة علاقاتنا الدبلوماسية لتشمل الصين في النظام الدولي.

5 – تعزيز تحالفاتنا.

6 – وضع قاعدة للانضباط الدبلوماسي وخاصة في الشرق الأوسط.

كان الانفراج جانباً من استراتيجية شاملة عبارة غير مناسبة تتضمن الحالات الأوروبية، وقد استخدم الانفراج للسيطرة على علاقة خصومة، وليس لاستحضار التغلب على الآلام بحيث تستبعد آلياً كما يصورها الكاريكاتور. وقد اعتبرنا، أنا ونيكسون، دوماً أن الاتحاد السوفييتي معادياً لنا عقائدياً ومُهدداً لنا عسكرياً. وكامبرطورية وقضية معاً كان القوة الوحيدة القادرة على التدخل عالمياً ومصدراً لمعظم الأزمات الدولية لفترة ما بعد الحرب، والدولة الوحيدة القادرة على مهاجمة الولايات المتحدة[5].

بعد سنوات زعم منتقدو نيكسون اليمينيون إنه كان «رقيقاً» تجاه التهديد السوفييتي العالمي. لم يفهموا الخطر الذي كان يواجهه. ما كان يعني إدارة نيكسون قبل كل شيء في تلك المرحلة أن «المكتب السياسي» يمكن أن يرى في اضطراب أمريكا بشأن فيتنام (ثم بشأن ووترغيت فيما بعد) فرصة لزعزعة استقرار أوروبا والمناطق الاستراتيجية الأخرى. كانت الخشية من قدرة السوفييت النووية (التي كنا واثقين من قدرتنا على الاستمرار في ردعها) أقل من احتمال أن يعتمد «المكتب السياسي» السوفييتي تفوقه في الأسلحة التقليدية لخلق أزمة تأخذ مفاتيحها من تاكتيكات هانوي: استبدال الضغوط العسكرية بهجوم سلمي مصمم لتحريك حركات السلام القوية ضد إدارة يفترض أنها مهتزة في واشنطن.

كنا مصممين على ألا ننتظر بصورة سلبية وراء متاريسنا يمزق الاحتجاج بلادنا، ويضعف حلفاؤنا في وجه دبلوماسية مرسومة من قبل خصومنا ومشلولة بسبب حركة الاحتجاج. بدلاً من ذلك أوجدنا استراتيجية كانت تقيس فوائد الضغط وعقوبات التهور لابعاد الزعماء السوفييت عن تصعيد تحد أثناء فترة اضطراب قومي في البلاد. وإذا أخفق الضغط، فإن هذا الجهد سوف يُبين للشعب الأمريكي أن الأزمة الناتجة قد سببها الاتحاد السوفييتي ـ وبذا نحفز التأييد لرد قوي.

باختصار، عالجنا مخاض أمريكا في فيتنام كضعف مؤقت ما إن تجاوزناه سوف يمكننا من أن نتفوق على النظام السوفييتي حيث فاقمت عزلته الجيوسياسية واقتصاده الراكد من حماسته الايديولوجية.

أرسلت مذكرة موجزة إلى نيكسون قبل زيارة بريجينيف إلى الولايات المتحدة عام 1973 تعكس التحليل التالي:

> من المؤكد غالباً أن بريجينيف سيستمر في الدفاع عن سياسته الانفراجية في مناقشات «المكتب السياسي» بمعنى النزاع التاريخي معنا بوصفنا البلد الرأسمالي الرئيس وعن الفوائد التي سيحصل عليها الاتحاد السوفييتي في هذا النزاع. ومقامرة بريجينيف أنه لما كانت هذه السياسات تجمع ما بين الزخم والاستمرارية، فإن تأثيرها لن ينسف النظام الذي يستمد بريجينيف منه قوته وشرعيته.
>
> وهدفنا من جهة ثانية أن نحقق بدقة مثل هذه التأثيرات على المدى الطويل (بالإضافة إلى تأكيد)[6].

لقد كان حكمنا على السوفييت فيما يبدو أنه قوة متراصة ومتعطشة للغاية إلى استعراض قدرتها العسكرية. ولكن بعض المراقبين المحنكين من أمثال أندري أمالريك (الذي أعطيت مقالته لنيكسون كي يقرأها) كانوا يلفتون الانتباه إلى أن حقيقة الإمبراطورية السوفييتية كانت تواجه نقاط ضعف فطرية وعميقة[7]. ولفترة تزيد على خمسين سنة من تاريخها لم تعرف القيادة السوفييتية الخلافة الشرعية. فالزعماء إما يموتون أثناء وجودهم في الحكم (مثل لينين وستالين) أو يُستبدلون بما يشبه الانقلاب (مثل خروتشيف). وفي كلتا الحالتين كان يعقبهما عملية تطهير. ونمو القدرة العسكرية السوفييتية كان يستنزف الاقتصاد ويقوده إلى الركود. ولهذا قلت في محاضرة في شهر حزيران 1976: ليس لدينا سبب للخوف من المنافسة... إذا كانت هناك منافسة اقتصادية فقد ربحناها منذ وقت طويل.. لا توجد بقعة في العالم، وفي ظل أي نظام آخر يعيش فيه الناس برفاهية ويتمتعون بكثير من الحرية كما نحن. وإذا كان حسن الأداء يعتبر معياراً فإن المنافسة ما بين الحرية والشيوعية، والذي تحقق خلال ثلاثة عقود فيها الكثير، قد كسبتها الديمقراطيات الصناعية[8].

خلال هذه المسيرة كان الموقف السوفييتي الدولي يزداد تعقيداً. فالتوتر بين موسكو وبيجينغ كان يتصاعد. وخلال أسابيع من ولاية نيكسون علمنا بالمواجهات العسكرية على طول «نهر يسوري» الذي يرسم خط الحدود القريبة من البحر ما بين الصين والاتحاد السوفييتي عند حافة سيبيريا. وعُززت القوات السوفييتية على طول خط الحدود مع الصين البالغ أربعة آلاف ميل. وحتى قبل أن نقيم علاقات مع الصين كان في حسابنا أن الخوف من الحرب على جبهتين سوف يفرض مزيداً من القيود على ضغوط الاتحاد السوفييتي على أوروبا، كما يوفر فرصاً دبلوماسية جديدة للولايات المتحدة ـ وهذا ما حصل بالفعل.

الانتفاضات في كل من هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وما يشبه الثورة في بولندة عام 1970 أضعفت من قوة القبضة السوفييتية على الدول التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي. لقد كان من دواعي السخرية أن الاتحاد السوفييتي كان الدولة الوحيدة تماماً المحاطة بدول شيوعية معادية.

وفي الشرق الأوسط كان السوفييت يسلحون حلفاءهم العرب من أجل حرب كان في استطاعتنا تماماً أن نمنعهم من أن يكسبوها. لذا كانت استراتيجيتنا في الشرق الأوسط الزام الاتحاد السوفييتي وحلفائه العرب الراديكاليين على فك الارتباط فيما بينهم أو جعل دبلوماسيتهم معتدلة.

كانت إدارة نيكسون مقتنعة، انطلاقاً من أن الانفراج ليس ضعفاً، أنه لا يوجد ما تخشاه ولديها الكثير مما تربحه من دبلوماسية مرنة يجد الاتحاد السوفييتي نفسه من خلالها في حالة غير مؤاتية. فالسوفييت

بخسارتهـم للورقة الأيديولوجيـة، واقتصادهم الهش، والقيادة الهرمة والافتقـار إلى حلفاء حقيقيين قد جعلهم مجرد لاعب آخر على المسرح الدولي لا يتحلى بكثير من الفاعلية.

وجهة النظر هذه قد طُرحت علانية في التقرير الرئاسي السنوي الأول أمام الكونغرس حول السياسة الخارجية:

> دروس العقدين الأخيرين لابد أن تترك بصماتها على القيادة في الكرملين بالاعتراف بأن الايديولوجية الماركسية ليست المرشد الأكيد لمشكلات مجتمع صناعي متغير، إن الانحدار العالمي في جاذبية الأيديولوجيا، وفي مشكلات السياسة الخارجية التي فرضها انتشار الشيوعية إلى بلدان ترفض أن تتحمل خضوعاً دائماً للسلطة السوفييتية ـ لهو تطور يصوره بشكل حيوي الانشقاق مابين السوفييت والصين[9].
>
> إن التقييم الاستراتيجي، من أجل أن يكون فعالاً، يحتاج إلى ترجمة من خلال سياسة عملية. هذا الجهد واجه التناقض الأمريكي الدائم إزاء هدف الدبلوماسية. كانت المجموعة الليبرالية المسيطرة آنذاك تنظر إلى المفاوضات كنهاية في حد ذاتها بغض النظر عن المحتوى. وجادلت بأن مجرد الحوار «يُلطف الجو» كل اتفاق كان يسهل الطريق أمام تقدم أبعد إلى أن أبعدت روح المصالحة شكوك الحرب الباردة وجعلت بعض المسائل التي كانت تسيطر عليها أقل أهمية.

لقد رفضنا في إدارة نيكسون التقييم للموقف. كنا نستعد إلى فترة مكثفة من المفاوضات، ولكننا لم نكن مستعدين أن نسمح لخصومنا أن يختاروا جدول الأعمال أو الشروط. التقدم في مسائل تهم موسكو يجب أن يقترن بتقدم في مجالات تهمنا. ولهذا فقد أصررْنا على أن تجري المفاوضات الفردية، المفاوضات حول التجارة ومراقبة التسلح، في جو من كبح جماح السوفييت سياسياً، ولا سيما في المواقع الساخنة والمضطربة، مثل برلين، والشرق الأوسط، والهند الصينية. وقد أرسل نيكسون بعد توليه الرئاسة بأسبوعين، في 4 شباط، 1969 برسالة بهذا المعنى إلى كبار موظفي «مجلس الأمن القومي»:

> أنا قانع أن المسائل الكبرى مترابطة بشكل أساسي. أنا لا أعني إقامة روابط مفتعلة بين عناصر معينة لمسألة أو أخرى أو بين المسائل التكتيكية التي نختارها.
>
> ولكنني أؤمن أن أزمة أو مجابهة في مكان ما وتعاوناً حقيقياً في أخرى لا يمكن أن يصمد في وقت معا.
>
> أؤمن بأن الزعماء السوفييت ينبغي أن يفهموا أنهم لا يستطيعون أن يمحوا منافع تعاون حقيقي في أخرى لا يمكن أن يصمد في وقت ما.

obeikandl.com

أؤمـن بأن الزعماء السوفييت ينبغـي أن يفهموا أنهم لا يستطيعون أن يمحوا منافع تعاون فـي منطقة ما في الوقت الذيـن يسعون فيه إلى الاستفادة من توتـر أو مجابهة في مكان آخـر. مثل هذا النهج ينطوي على خطر أن يستخـدم السوفييت المحادثات حول السلاح كأمان للتصلب في مجال أخر[10].

تميـزت استراتيجية نيكسون التفاوضية تجاه الكرملين بأمرين. فهي خلافاً لرأي الليبراليين، لا تبرر دبلوماسيتهـا المتعلقـة بالعلاقات بين الشرق والغرب بتغير مفترض في الدوافـع السوفييتية. لقد رفضنا بوضـوح الفكـرة التي تفيد أن الزعماء السوفييـت «قد تخلوا عن معتقداتهم أو أنهـم على وشك أن يفعلوا ذلـك...»[11]. ولكـن خلافاً للمحافظين الذيـن كانوا يخشون أن تُضعف الاتفاقيـات احتراس أمريكا، كنا نقول إن الاتحاد السوفييتي كان أكثر هشاشة من العالم الحر لفترة طويلة من السلام، ومن المحتمل أكثر أن يواجه تغييرات جوهرية نتيجة ذلك.

لـم نكـن ننظر إلى الاتحاد السوفييتي ككتلة واحدة بل كمزيج مـن التوجهات الأيديولوجية، والقومية، والإمبريالية. وهـذا مـا تجلـى من خـلال مـا كشفه خروتشيـف من جرائـم ستاليـن وقمـع السوفييت للاضطرابـات في أوروبا الشرقية. وعلى ضوء ضعفه الاقتصادي وعزلته الجيوسياسية، قصدنا أن نحول الاتحاد السوفييتي من فكرة إلى دولة قابلة للتأثر بالحسابات التقليدية للربح والعقاب، عن طريق تخفيف حدة الحرب الباردة أولاً، ثم تجاوزها.

في نهاية الولاية الأولى لنيكسون دافعنا عن استراتيجية التحرك قُدماً على جبهة واسعة. كان الاتحاد السوفييتـي يحجـم عن المغامـرات الجيوسياسية بفضل عصا انفتاحنا على الصيـن، وجزرة آفاق زيادة التجـارة. وفي عـام 1971 ساعدنا على القناة التـي فتحها المستشار الألماني ويلـي براندت والتي عرفت باسم «السياسة الشرقية» «Ostpolitik» بشكل يتوافق مع مصالح الحلفاء. وفي عام 1972 كنا قادرين على ممارسـة الضغط على هانوي بـدون أن يتدخل السوفييت. وقد استمر السوفييـت في مؤتمرات القمة على الرغـم من زرعنا للألغام في الموانئ الفيتنامية وتجديد قصفنا لشمال فيتنام لأنهم كانوا يستفيدون من منافع زيارة نيكسون أكثر من روابطهم الأيديولوجية مع هانوي. وقد تعزز هذا الضغط بمعرفة السوفييت أن البرلمـان الألمانـي، في ظـروف مجابهة أمريكيـة ـ سوفييتيـة، لا يمكن أن يصادق علـى المعاهدات التـي وقعت مـع الاتحاد السوفييتي حول القبول بحدود ما بعد الحرب. كمـا جرى طرد القوات السوفييتية مـن مصـر عام 1972، كمـا تنبأنا عام 1970. وفي نهاية عـام 1973 كانت الولايـات المتحدة تُهيمن على دبلوماسيـة الشرق الأوسط. وجرى التفاوض على اتفاقية للأسلحة الاستراتيجيـة تُجمد بناء الصواريخ المتعددة السوفييتية بدون أي تعديل في البرنامج الأمريكي. لقد انتصرت العلاقات[12].

الهجوم على سياسة نيكسون الخارجية:
التحدي الليبرالي

عنـد هـذه النقطة الساخنـة من سياسة نيكسـون وربما السياسـة الخارجية الأمريكيـة لفترة ما بعد الحـرب، انهار الإجمـاع الوطني. فبدأً من عام 1972 وخلالَ ما تبقى من فتـرة ولاية نيكسون، كان يجري جـدل داخلي متنوع حول طبيعة وأولويات السياسة الخارجية الأمريكية. وما يزال مستمراً حتى كتابة هذه السطور مع بعض الانقطاعات القصيرة.

تجمعت عدة عوامل لإفراز هذه الحالة غير المتوقعة تماماً. لعل الأمر الجوهري الأول أن نيكسون وأنا لـم نقـدّر جيداً تأثير الخلاف الحاد على نفسية الجمهور ما بين معالجتنا للسياسة الخارجية والويلسونية التـي باتت مهيمنة في القرن العشرين. نيكسون من جانبه زاد مرارة الاختلاف بالتأكيد في خطبه العامة (وليـس فـي تقاريرنا السنوية للكونغرس) قضايا السياسة الداخلية أكثـر من شرحه لسياسته الخارجية. كان نيكسـون مقتنعـاً أن أفضل طريقة لعزل خصومـه الليبراليين، عملياً، هـي أن يسرق برنامجهم. ولم يستطـع نيكسـون أن يخفي أنه ـ وهو المحارب البارد الرجعي المزعـوم ـ قد نفذ الكثير من جدول أعمال الليبراليين في التفاوض مع الخصم.

أغاظ هذا التكتيك الليبراليين الذين تجاوزوا نيكسون كثيراً بإثارة قضايا «أخلاقية» مثل حقوق الإنسان ومزيـد من اقتراحات مراقبة التسلح الشديدة حيث كانوا يعتقدون أن نيكسون لا يستطيع أن يجاريهم كما أفقـده تأييد المحافظين التقليديين الذين كان من الممكن أن يجدوا تبريراً لسياستنا كما كانت ـ طريقة لإدارة الحرب الباردة ـ ولكنهم اعتبروا الشعارات الليبرالية بمثابة انتهازية وراحوا يحتجون في مكان آخر عن أبطال. ولما كان نيكسون شديد القابلية للتكيف فقد وجد نفسه محصوراً بين جماعتين كان يسعى إلى المناورة معهما: الليبراليون الذين اتهموه بأنه محارب من محاربي الحرب الباردة وممثليها، والمحافظون التقليديون الذين اتهموه بالانتهازية الشديدة.

الليبراليـون الذين دافعوا عـن فكرة اتصالات أوسع ما بين الشرق والغـرب، ومراقبة التسلح، وزيادة التجـارة لفتـرة عقد من الزمن على الأقل، كان حرياً بهم أن يؤيدوا هـذه السياسات التي باتت تُطبق الآن فعـلاً، رغـم الاختلاف في طريقة معالجتنـا وتسويغنا لها وتحت زعامة أي شخص عـدا نيكسون كان من المحتمـل أن يصادقوا فـي النهاية على جوهر سياستنـا، حتى مع الاختلاف في المعالجـة الجيوسياسية التـي كنا نبررها بهـا. ولكن نيكسون كان بمثابة لغته بالنسبة إلى الجماعة الليبرالية طوال فترة تزيد على عقدين من الزمن والجرح كان عميقاً.

كان خـط الدفاع الأول بالنسبة لليبراليين تنفيذ جميع انتقاداتهم القياسية. وكانوا يقولون إن سياسة نيكسون لم تكن تتقدم بما فيه الكفاية وإنها كانت فعلاً ذريعة لاستمرار الحرب الباردة. ولكن نظراً للجبهة

العريضــة التــي كان يتقدم فيها نيكسون، فإن هذه المقولة لم تحظ إلا بجاذبيةَ ضئيلة من جانب أي طرف باستثناء أعداء نيكسون المتأصلين.

وحدث بعد ذلك في غضون عام 1972، أن توجهت انتقادات الليبراليين وجهة جديدة بالكامل مكنتهم من الاستمرار في انتقادهم الأخلاقي التقليدي. فرغم اصرارهم على مطالبهم المعتادة التي أشرنا إليها فقــد توجهوا الآن نحو إعلان الحرب على النظام السوفييتي الداخلي، وبدون أي حرج من رفضهم السابق لفكــرة ربــط قضايا السياســة الخارجية بعضها ببعض فقــد باتوا يطالبون بإصرار علــى أن ترتبط جميع الاتفاقيات معهم بإجراء تغييرات في ممارسات الاتحاد السوفييتي الداخلية.

عكســت التحــولات في موقف افتتاحيــات «نيويورك تايمز» هــذا التغيير الجوهري فــي موقفهم. ففي غضــون بضعــة شهور في خريف 1972 انتقلوا من الدفاع غير المشــروط عن التجارة بين الشرق والغرب، ومراقبــة التسلــح ـ والهجوم على الارتبــاط ـ، إلى الانتقــاد الشديد لأية اتفاقية لا تعــري البنية الداخلية السوفييتيــة. وفي 13 أيلول 1972 كانت صحيفة «التايمز» تؤكد على وجهة نظرها الليبرالية التقليدية التي تقول إن التجارة الموسعة «مفيدة لكلا الطرفين بحيث ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار.. من حيث جدواها، بعيداً عن بعض النزاعات الثانوية في مناطق أخرى»[13].

وفــي غضــون شهرين، وفي 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1972، حذرت صحيفة «تايمز» قراءها من أنه «سيكــون من الخطأ الجسيــم إذا ما قام الاقتصاد الأمريكي، أو إدارة نيكسون بتوسيع التجارة السوفييتية ــ الأمريكيــة، وهو ما يريده المسؤولون الروس، من أجل أن ننســى حساسية الشعب الأمريكي المستمرة ـ والكونغرس ـ تجاه السلوك السوفييتي السياسي داخل وخارج حدود الاتحاد السوفييتي»[14].

انتقاد المحافظين

سرعان ما لقي موقــف الليبراليين الرافض صداه لدى مختلف المجموعات المحافظة. فالمحافظون الذيــن يعتقــدون أن الحــرب الباردة كانــت نضال حيــاة أو مــوت إيديولوجياً، لــم يكونوا مرتاحيــن أبداً للمفاوضــات واسعة النطاق مع الاتحاد السوفييتي لمجــرد أنها تتضمن درجة من المصلحة المشتركة مع العــدو الشيوعــي. وفي رأيهم أن الشيوعية طالما تمسك بقبضتها على زمــام الأمور فإن أي أمل في تعديل السلــوك السوفييتي ما هو إلا ضرب من الخيال. المحافظون كانوا يرتاحون إلى شكل من سياسة الاحتواء التــي ابتكرها الثنائي أتشيسون ـ دالاس، وينتظــرون وراء «مراكز القوى» إلى أن تنهار الشيوعية نهائياً في الاتحاد السوفييتي، ويفضل أن تنهار أيضاً في الصين[15].

انشقــاق المحافظين عن نيكســون كان أمراً مؤسفاً لأننا لم نكن نختلف عــن تحليلهم لطبيعة النظام السوفييتــي. ما كنا نختلف فيه هــو تقويم مضاينها بالنسبة إلى سياسة أمريــكا الخارجية. كنت أؤمن أنا ونيكســون أن رفض التفاوض مع الكرملين سيزيد من انتشار حركــة الاحتجاج المعادية لحرب فيتنام في

كل جانب من جوانب سياستنا الخارجية وتفرق بعمق بيننا وبين حلفائنا. من الأفضل كثيراً أن نمسك بالمبادرة ونسيطر على العملية الدبلوماسية. وفي الوقت نفسه، سنفتح المجال أمام الإمكانية التي بدأت كتاكتيك والتي يمكن أن تتطور إلى نظام تعايش مشترك موثوق أكثر.

اختلاف نيكسون مع المحافظين التقليديين كان من نوع الخلاف العائلي؛ كانوا يمتعضون من رؤية نصيرهم التاريخي يتبنى تاكتيكات، وحتى بعض أقوال خصومه الليبراليين السابقين. وأحياناً، ولا سيما قبل وقوع فضيحة ووترغيت، كانوا يتوقفون عن الخلاف إذا وسّع نيكسون خطته الاستراتيجية لتشمل مؤيديه التقليديين ـ كما يفعل بالتأكيد بطريقة غير مؤذية.

ما حول قلق المعارضين إلى معارضة سافرة كان ظهور من يُدْعون بالمحافظين الجدد. أن يطلقوا على أنفسهم لقب المحافظين كان مفارقة، لأن زعماءهم بدون استثناء قد انطلقوا من الجانب الليبرالي، ومعظمهم من جناحه اليميني. لقد أدانوا نيكسون، وعارضوا حرب فيتنام، وميزانيتنا الدفاعية التي وصفوها بأنها ميزانية حرب باردة، وضغطوا من أجل موقف تصالحي أوسع مع الاتحاد السوفييتي[16].

ولكن مواقفهم بدأت تتغير منذ صيف 1972، وامتدت لمدة سنة، هذه المجموعة خاب أملها بالتحول الذي كانت تجريه الليبرالية الأمريكية ووجدوا من غير المستساغ أن تختار الراديكالية، ونمط حياة التقليد الديموقراطي، جورج مكغفرن عام 1972. ومنذ الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا أصبحوا أكثر ابتعاداً عن الاتحاد السوفييتي وانتقاداً له. وجاءت حرب 1973 في الشرق الأوسط لتستكمل تحولهم نحو الوقائع الجيوسياسية. وفسروا تلك الحرب على أنها مؤامرة سوفييتية ـ عربية ضد اسرائيل والديمقراطيات الصناعية، واستخلصوا أنه ينبغي مقاومة التحدي باسم معارضة الانفراج. وما إن غيروا مواقفهم حتى اشتد عداءهم للشيوعية الذي غلب عليه طابع الفصاحة. وأظهروا انجذاباً واضحاً نحو استراتيجية شحذت طيلة سنوات الحرب الأيديولوجية على يسار الحواجز.

كثير من المحافظين الجدد كانوا (أو أصبحوا) أصدقاء شخصيين. وكنت أحترم بعضهم من أمثال نورمان بودهوريتز، وميدج ديكيتر وايرفينغ كريستول لإساهمهم الفكري والأخلاقي المهم ولقد أحببتهم على المستوى الشخصي. كما كنت معجباً منذ زمن بدانيال باتريك موينيهان مع أن صفته «كمحافظ» كانت مؤقتة إلى حد ما. وعندما أصبحت وزيراً للخارجية عرضت عليه منصب مستشار في الوزارة وأوصيت به أمام نيكسون لمنصب سفير في الهند، وأمام فورد كسفير في الأمم المتحدة. ومن هذا الموقع الأخير انطلق موينيهان في مهنته السياسية، على أساس معارضة آرائي المفترضة حول العلاقات بين الشرق والغرب أو على الأقل تفسيره الخاص لها.

مهما كانت انتقاداتهم مؤلمة عندما كنت على رأس عملي فإن هؤلاء الأفراد قدموا إسهامات مهمة في الفكر الأمريكي تجاه السياسة الخارجية. وقد جاؤوا بكثير من الحيوية الفكرية في الجدل، مما ساعد

علـى تجاوز هيمنة الحكمة الليبرالية التقليدية. ومـا إن استلموا السلطة في عهد إدارة ريغان حتى وضعوا استراتيجية قومية ناجحة وقوية.

ولكن كان ثمة جانب عكسي من الذكاء الفردي الذي استخدموه في معتقداتهم المستحدثة.

فعندما ظهر المحافظون الجدد لأول مرة على المسرح، كانت خبرتهم المحددة هي تحولهم الايديولوجي نحـو متابعة «الحرب الباردة». لقـد أرهقتهم التكتيكات؛ لقد رأوا أنه لا توجد أهـداف ذات أهمية بالنسبة للسياسـة الخارجيـة الأمريكيـة أقل من النصـر الكامل. لم تستوعـب ذاكراتهم التاريخيـة المعارك التي رفضـوا الانضمام إليها أو الصدمات الداخليـة التي كثيراً ما شاركوا فيها من الجانب اليساري الراديكالي للمتاريس. وعندما انتقل المحافظون إلى اليمين الراديكالي، كانوا يخفون في حقائبهم كراهيتهم العميقة لنيكسون رغم أنهم باتوا الآن من الناحية العملية في جانب واحد. وشوهوا الجدل الدائر بلمسة من فقدان الذاكرة تجاه دورهم في المعارك الرشيمية التي كانت فيتنام رمزهاإن لم تكن سببها.

عجلـت فيتنـام بما كان ينبغي على الولايات المتحدة أن تفعله على أية حال، وإن كان بالتدريج: فالقوة في العالم باتت مستبعدة وعزل أمريكا بات مستحيلاً على نحو متزايد. ومع بداية القرن الحادي والعشرين لا بد للولايات المتحدة أن تمارس نفوذها بوصفها الجانب الوحيد الأكثر أهمية وتماسكاً في النظام الدولي ولكنهـا لـم تعد البلد المهيمن كما كانـت في بداية الحرب الباردة. المبـادرات العظيمة في بداية الحرب البـاردة كانـت بمثابة «حلول» للتحدي الـذي تواجهه. ومن هنـا كان لابد من مشاركـة أمريكية دائمة في معتـرك الحياة السياسية الدولية. من هنا فإن ماكنا نحتاجـه هو مشاركة أمريكية دائمة تعتمد أكثر على قدرة تجميع فروق دقيقة من رسم نتائج نهائية في فترة قصيرة.

كان يتضح أن المثالية يمكن أن تقود إلى زيادة التوسيع بقدر ما تقود إلى حساب خاطئ.

ومـع هذا فـإن الديلسونية الأمريكيـة التقليدية ثارت ضد حقيقـة أن الأهداف الكبيـرة في السياسة الخارجيـة لا بد مـن مقاربتها على مراحـل غير متكاملة عمومـاً. وضاعفت خيبات الأمـل في فيتنام من التحـرر مـن الوهم. وقد أرجع العارضـون الراديكاليون لحرب فيتنام الاخفاقات فـي الهند الصينية إلى قصور معنوي وبشروا بعلاج التنازل من أجل تمكين الولايات المتحدة من التركيز على تحسين ذاتها. وقد عكس المحافظون الجدد الدرس، واجدين في إعادة التوليد الأخلاقي مفتاح إعادة الالتحام. ولقد وافقت كما وافق نيكسون على المقدمة المنطقية للمحافظين الجدد ولكننا اعتقدنا أيضاً أن الويلسونية البسيطة لبدايـة الستينـات قد دفعتنـا إلى مغامرات تفـوق قدراتنا وحرمتنا مـن العيار السليـم لتحديد العناصر الأساسيـة لهدفنـا القومـي. وأولئك الذين صدمـوا منا بالاحتجاج علـى فيتنام كانوا معنييـن بعمق ـ بل مذهولين ـ بتجنب إعادة هذا الشكل. لذا سعينا للوصول إلى معالجة أكثر اعتدالاً لسياسة أمريكا الخارجية تتجنب ـ كما أعلنا مراراً ـ التأرجح بين التنازل والتوسع الزائد الذي كان سمة الفترة السابقة.

لقد أصر المحافظون الجدد على أن مثل هذه المعالجة لا توفر العدالة للدينامية الأخلاقية للمجتمع الذي أدار ظهره لحسابات العالم القديم. وفي مسيرتهم العملية لم يقدموا إدارة جديدة كما يدعون، بل عودة إلى الولسونية المشاكسة. لقد كان الهدف الأساس للسياسة الخارجية في نظرهم محو الشر المتمثل بالاتحاد السوفييتي بدون خلط هذه المسألة بالتكتيكات.

عندما رأيت أنا ونيكسون الخطر الداهم في التوسع السوفيتي في مجال التفوق في القوات التقليدية، ووسائل الاتصال الداخلية، ومظلة الأسلحة النووية الاستراتيجية فإن كابوس المحافظين الجدد صار أشبه بصراع جهنمي، ربما نووي، من أجل السيطرة على العالم. كان فريق نيكسون ينظر إلى النزاع مع موسكو على أنه صراع طويل المدى ذو صفة جيوسياسية، بحيث نستطيع من خلاله، بالتعاون مع حلفائنا أن نسقط النظام السوفييتي. أما المحافظون الجدد فكانوا يرون أن من الممكن تجاوز الشيوعية من خلال تدفق الحيوية الإيديولوجية.

لما كان كثير من المحافظين الجدد يعتبرون حتى حلف «الناتو» بمثابة إعاقة أكثر مما يشكل تعزيزاً للقوة الأمريكية، فإنهم لم يجدوا أية فائدة تذكر في مجابهة التجاوزات الجيوسياسية السوفييتية في ميادين قتال بعيدة، مثل أنغولا أو الهند الصينية، بدلاً من مواجهة التهديد الأيديولوجي أو النووي السوفييتي في شكل ما من المجابهة الحاسمة. هذا ما جعل المحافظين الجدد يخففون في تأييد إدارة فورد عندما قطع الكونغرس المساعدات عن الشعوب البائسة في فيتنام الجنوبية وكمبوديا والقوات الأفريقية التي كانت تقاوم التدخل السوفييتي ـ الصيني في أنغولا.

إن إصرار المحافظين الجدد على الانفصال عن ماضيهم جعلهم غير واعين للبيئة التي تُنفذ فيها قواعدهم وجعلهم لا يستوعبون الدروس الحقيقية لفيتنام في الوعي القومي. ومهما كانت الحجة النظرية للمحافظين الجدد، فإن الولايات المتحدة التي خرجت لتوها من جحيم فيتنام، وسط فضيحة ووترغيت، وفيما بعد بوجود رئيس غير منتخب، وبوصفهم للاستراتيجية الدبلوماسية لإدارتي نيكسون وفورد على أنها شكل من أشكال استرضاء العدو على حساب المبادئ الأخلاقية، ووصفهم لمقاومتنا للتوسع الشيوعي في مسارح مختلفة كابتعاد عن النضال الرئيس، قطع المحافظون الجدد الطريق أمام أي جدل حول السياسة الخارجية.

وحتى فترة لا بأس بها من ولاية فورد كانت ضغوط الكونغرس ووسائل الإعلام تأتي على الوجه الأغلب من الجانب الليبرالي في الطيف السياسي. فقد كان السيناتور مايك مانسفيلد زعيم الغلبية في مجلس الشيوخ يقود بين حين وآخر حملات لسحب القوات الأمريكية من أوروبا، وكان رئيس «لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ» ج. وليام فولبرايت يعترض على عسكرة السياسة الخارجية الأمريكية، كما كان كل من السيناتورين فرانك تشيرش وولتر مونديل يهاجم دوائر الاستخبارات. وكان بعض الشيوخ

الليبراليين من أمثال الجمهوريين جاكوب جافيتس وجون شيرمان كوبر والديمقراطي هيوبرت همفري يصادقون على سياستنا الخاصة بمراقبة التسلح ولكنهم امتنعوا عن تأييد البرامج الدفاعية الضرورية لمنحنا امتيازاً في المفاوضات.

في بداية السبعينات، لم يعد ما كان يدعى فيما بعد بسياسة ريغان قائماً. لم تكن العقبة أمام مثل هذه السياسة إدارة نيكسون أو فورد، بل الكونغرس ووسائل الإعلام الليبرالية. إن المحافظين الجدد بهجومهم على نيكسون أولاً ثم على فورد، قد قدموا عذراً لأولئك الذين حالت ضغوطهم دون نتيجة أفضل في الهند الصينية، والذين سبب تشريعهم فيما بعد سقوطها وسمح بالانقضاض السوفييتي ـ الكوبي على أنغولا. النقطة الجوهرية في مناقشة السياسة الخارجية لدى المحافظين الجدد هي اللحظة التي ظهروا فيها على المسرح، وركزوا كثيراً على عدم توافق تاكتيكي مع رفاقهم المحافظين مما جعل من الصعوبة بمكان إدراك الدروس الحقيقية لمأساة فيتنام.

حتى بعد أن حقق المحافظون الجدد نفوذاً كبيراً في ظل حكم ريغان فقد استمروا في هجومهم بالإصرار على رؤية التاريخ تبعد أمريكا كثيراً عن الحاجة إلى مواجهة التعقيدات.

ووفقاً لهذا الفهم للتاريخ، جرى تجاوز جماعة التسوية المتأثرين بالقادة الأوروبيين؛ قد جرى تجاوزهم من قبل بعض الفرسان المنحرفين الذين ظهروا فجأة على المسرح وانتشروا بسرعة منادين بالتفريق بين الخير والشر والدور الثوري للمبادئ الديموقراطية.

كان الواقع أكثر تعقيداً آنذاك وقد ازداد تعقيداً عند كتابة هذه السطور. ورونالد ريغان ومساعدوه يستحقون كثيراً من الثقة لشجبهم الحرب الباردة، ولكن الولايات المتحدة لن تحصد الدروس العقلانية لنجاحها إذا عززت انتصارها في الحرب الباردة بأوصاف بلاغية. لقد كانت سياسة ريغان في الواقع، إعادة تأكيد هادئة لاستراتيجيات إدارتي نيكسون وفورد وتحت رداء من السفسطة البلاغية الولسونية ـ جمع أمريكي جوهري ما بين البراغماتية والمثالية[17]. بمعنى ذي مغزى إن انتصارات الثمانينات التي اكتسبت الطابع الريغاني ـ ليست رفضاً ـ لاستراتيجيات السبعينات.

إدارة ريغان لم تشجب أو ترتد عن الترتيبات العملية على سبيل المثال، فقد وقعت مذكرة مع الصين قبلت بموجبها القيود على إمداد تايوان بالأسلحة. وفي ريكجافيك وافق ريغان برغبة شديدة على التخلي عن جميع الترسانات النووية. وهي مغامرة بشأن مراقبة التسلح لم يكن نيكسون ليفكر فيها مطلقاً. وفي السياسات العملية في الشرق الأوسط، وجنوب أفريقية، وأمريكا الوسطى وفي الدفاع الصاروخي انتهجت إدارة ريغان إلى حد بعيد النهج الذي اختطه نيكسون أو فورد، وهذا ما جعلني وجعل جميع أعضاء فريق الأمن القومي في عهد إدارتي نيكسون وفورد يؤيدون العناصر الأساسية لسياسة ريغان الخارجية.

اتخـذ كل مـن نيكسون وفورد وريغان سياسـات رمت في الوقت نفسه إلى احتـواء الاتحاد السوفييتي، وتقليص نفـوذه، والسير فـي هذه العمليـة دون الإعلان عنها. ولكن فـي حين سعى نيكسـون إلى إضفاء الشرعيـة علـى هـذه السياسات من خـلال نجاحها العملـي، أظهر ريغـان حساسية أكبر تجـاه المشاعر الأمريكية بتبرير نهجه باسم المثالية الأمريكية. حاول نيكسون أن يُعلم فضائل المصلحة القومية بتصوير ما سماه «بنية السلام» أما ريغان فقد فهم بشكل أفضل أن الشعب الأمريكي يتأثر بالهدف أكثر من البنية، وإعـلان سياسة ترداد للولسونية الكلاسيكية القائمة على الفضيلـة الديمقراطية. وبالنتيجة كسب تأييداً أوسـع لميزانيته الدفاعيـة العالية وإعادة الترتيـب الجيوسياسي أكثر مما كان نيكسـون يستطيع تحقيقه أو استطـاع أن يحققه فـي وقته بالوسيلة ذاتها. (ريغان، بالطبع، قاد أمـة تعافت إلى حد كبير من صدمة فيتنام وتخلصت من إذلال أزمة الأسرى في إيران).

والحـق أن كلتـا مقاربتي ريغـان الإيحائية وحدة ذهـن نيكسون الجيوسياسية كانـت بحاجة إلى اتباع سياسـة خارجية بعيدة المدى في القرن الحادي والعشرين. فنيكسون تحت ضغط الظروف، وربما بسبب شخصيتـه مـن المحتمل أن يكون قـد بالغ في التأكيد علـى العامل التاكتيكي. ولكن مؤيـدي ريغان اليوم، بإنكارهـم أنـه ورث شعباً أمريكياً معافى نفسياً ومستعداً لمطاردة أقـوى مع ضعف الاتحاد السوفييتي مع ازديـاد الضغوط (بتراث سياسـة نيكسون الخارجية) يسعون إلى إدخال مسيـرة تاريخية في رئاسة ذات مناخ واحد. وبهذا فهم يؤجلون التركيب الذي بدونه لن نستطيع أبداً أن نحافظ بقوة على تحدينا وإجماعنا اللذين سيكونان من صنعهما إذا ما استطاعا أن يجمعا ما بين استقامتهما وبين الفهم بأن التاريخ لم يبدأ في وقت تحولهما.

مـع قـرب انتهاء إدارة نيكسون لم يفهـم الرئيس ولا أنا عمق تحدي المحافظيـن الجدد. لقد اعتبرنا أنفسنـا قريبين فلسفياً من المحافظين الجدد ولا نختلف عنهم إلا تاكتيكياً بالدرجة الأولى. وقد نشأ هذا الخلاف من وجهة نظرنا، من نظرة استراتيجية مختلفة، وليس من جدل حول الخيار «الرقيق» في مواجهة الخيار «القاسي»، كما يزعم المحافظون الجدد.

ومـع مـرور الوقت بات من الواضـح أن الخلافات تـزداد تعمقاً. فعلى أحـد المستويات كان هناك عنصـر المنافسة الشخصية الذي لا ينفصم عن السياسة. كثير من المتحولين نحو الاتجاه المحافظ كان مـن النشطـاء في السياسة الديمقراطية، مما يعني أنهم لم يكونـوا يسعون فقط إلى تطوير أفكار بـل يطمحون إلى تطبيقها في عالم السياسة. ولما كانوا قد انتسبوا حديثاً إلى المعسكر المحافظ فقد كانـوا بحاجة إلى فضاء لطموحهم ذاك. وكان من الطبيعـي بداهة أن يُصعّدوا اختلافاتهم التاكتيكية إلى مسألة مبدأ، وبالتالي الحاجة إلى استبدال المجموعة التي تصوغ سياسة «الجمهوريين» الخارجية القائمة.

ولكـن ثمـة في الواقع خلاف فلسفي ـ رغم أنني احتجت إلى عشر سنوات لفهم ذلك. لم يكن صدامنا مـع المحافظيـن الجدد حول طبيعـة الشيوعية التي كانت وجهـات نظرنا متقاربة جـداً تجاهها، بل حول العلاقـة مـع القيم الأخلاقيـة التي تدير السياسة الدوليـة. كنت أعتقد أن الأهـداف الأخلاقية مهمة، بل وحاسمـة، لإيجـاد الجَلد على اجتياز سلسلة من الخيارات الصعبة، حيـث تتوازن وجهات النظر المتباينة والمتوافقـة في النهاية، ويحتمل ألا تكـون النتيجة كاملة. لقد اعتقد المحافظون الجدد أن القيم يمكن أن تُترجم مباشرة إلى برامج عملية.

لـولا ووترغريـت لكانت رئاسـة نيكسون الناجحـة قادرة جيداً علـى الاستفادة من الأعمـال العظيمة فـي الولاية الأولى وعلى دمج القناعـات العقائدية للمحافظين الجدد مع آرائـه الجيوسياسة في معالجته للأمور.

ولكن في الجو المشحون لفترة 1973ـ 1974، بدأت الانتقادات الحادة لسياسة نيكسون الخارجية ـ ولا سيما حول الانفراج ـ تظهر مع فضيحة ووترغيت. وفقد نيكسون نفوذه في الكونغرس، وبالتالي فقد العصا والجـزرة اللتين بدونهمـا ما كان يمكن تعزيز أية سياسة جدية تجاه السوفييت. لم يستخدم المناورة أبداً في نوع من الحوار يمكن أن يحقق مصالحة مع كل من مؤيديه المحافظين السابقين والمحافظين الجدد الناشئيـن. ولمـا كان الجدل الناشئ يفتقر إلى الصوت الرئاسي القوي، كنـت وحيداً في مواجهة الهجوم الضـاري. وهـذا ما حول دوري إلى قضية سياسية ـ إلى موقف غير مريح وغير مستقر على المدى الطويل بالنسبـة لوزيـر للخارجية. فالرئيس المتورط في «ووترغيت» لم يكن في موقف يمكّنه من مقاومة ما وصل إلى ثورة للويلسونية التقليدية ضد تأكيد إدارته على المصلحة القومية.

والمفارقـة الساخـرة أن السفيـر السوفييتـي اناتولي دوبرينين فهـم استراتيجيتنا أفضـل كثيراً من منتقدينا من المحافظين الجدد. وكتب في مذكراته:

> أسـاس سياستهم تجاه الاتحاد السوفييتي كان مزيجاً مـن الـــردع والتعاون، خليط من الاعتبـارات قصيرة الأجل وطويلـة الأجـــل، كل من نيكسون وكيسنجـر سعى إلى إيجاد وضـع استراتيجـــــي مستقر وقابل للتنبؤ به بدون تخفيض المستـوى العالي للتســـلح الـذي ظـل أساسـاً لسياسة بُنيت أصـلاً على القـوة العسكرية وعلـى تكييـف المصالح القوميـة عندمـا يجـدون ذلك أمراً مرغوبـاً فيه فقـط إن جهودهم في مراقبـة التسلح أخفت سياسة القوة هذه، ولكـــن بدرجة طفيفة. ومن حيث الأساس، لم يكن الرئيس ولا مساعـدوه المقربون قادريـن (أو راغبين) على الخروج من مـدار الحرب الباردة مع أن موقفهـم كان أكثـر براغماتية وواقعية من أنصار الحـــرب البـاردة الآخرين في «البيت الأبيض»[18].

السيناتور هنري جاكسون والانفراج:
الاستراتيجية ومراقبة التسلح

لمـا كان الخـلاف قد بقي نظرياً إلى حد كبيـر فإن التحالف الصعب ما بيـن المنتقدين المحافظين والليبراليين لنيكسون كان من المحتمل أن يتهاوى بسبب تفسيراتهم المتناقضة لتطور الوضع الدولي.

ولكـن ما منع حدوث هذا كان ظهور هنري جاكسون «سكـوب» كزعيم قادر على وضع برنامج سياسي يمكـن أن يؤيده الليبراليـون والمحافظون. كان جاكسون، السيناتـور الديمقراطي من ولاية واشنطن منذ 1952، الخيـار الأول لنيكسون كوزير للدفاع. ولكنه رفض ذلـك لأنه كان يأمل أن يرشح نفسه للرئاسة في السبعينـات. كان جاكسون يحظى بشعبية لدى الحركة العمالية، وباحتـرام المحافظين لأنه كان المدافع الشديـد البأس عـن سياسة دفاعية وطنية قوية. ووقف بشجاعة مع كل مـن إدارتي جونسون ونيكسون في فيتنـام. وفي عام 1969 حقق الانتصـار الضيق في مجلس الشيوخ الذي صادق على برنامج إدارة نيكسون للدفاع الصاروخي.

وفيمـا بعد أصبح مصير هـذا البرنامج أحد أسباب تحرر جاكسون مـن الأوهام. وبات يؤمن أنه كان مخطئـاً تجاه تصميم نيكسون ووزير الدفاع ميلفين ليرد في الدفاع عن برنامج «الوقاي» الأصلي. وخفض معارضـو برنامج الدفاع الصاروخي في الكونغرس مواقع الدفاع الصاروخي الاثني عشر المخططة أصلاً فـي كل سنة حتـى بقي موقعان فقط في الميزانيـة الدفاعية لعام 1972. وجادل جاكسـون بأن الإدارة لم تدافـع عن برنامجها بقناعة كافية. ونظـراً لعدم الشفافية المميز لكل من نيكسون وليرد، فربما كان لدى جاكسون بعض ما يبرر ادعاءه. ومع أن نيكسون وليرد قد أذعنا لضغوط الكونغرس فقد كانا يعتقدان أنهما بذلك قد أنقذا بقية ميزانية الدفاع.

خـلال جميع الخلافات بقيت أكـنّ تقديراً عالياً لسكوب جاكسون، فخلال فتـرة ولاية نيكسون الأولى كنـت أتنـاول طعام الغداء بين حين وآخر في بيته لأطلعه على سياستنا، فقد وكان جاكسون حليفاً أساسياً فـي المعركة الطاحنـة التي لا نهاية لها من أجل إنقـاذ ميزانية الدفاع من تخفيضـات الكونغرس ـ وهذا موقف شجاع نظراً للتيار السائد داخل الحزب الديمقراطي في السبعينيات.

ولمـا كان جاكسون رجـلاً ذا مبادئ رفيعة فقد وجد أنه من المستحيـل أن التوافق مع تكتيك نيكسون وتقبـل كلامه الطنـان المنمق مع خصومه الداخلييـن، ولا سيما فيما يتعلق بالمفاوضـات مع السوفييت. وعلـى الرغـم من أن أهداف جاكسـون ظلت متأرجحة تجاه نيكسـون وفورد ـ ويوافق عليهـا أحياناً ـ[19]، إلا أن السيناتـور كان سياسيـاً مقتدراً يفهم أنـه إذا أراد أن يكون منافساً موثوقاً فـي ترشيحه رئيساً عن الديمقراطيين عام 1976، عليه أن يبتعد عن ريتشارد نيكسون.

كان جاكسون عنيداً ودؤوباً، ما إن يتخذ سبيلاً ما فإنه لا يتراجع عنه، وكان يُحفزه الرجل غير العادي ريتشارد بيرل الذي أصبح فيما بعد مساعده الأول. كان بيرل، الذي لم يشارك في مجادلات الستينيات، معادياً متحمساً للشيوعية وواحداً من أقدر أصحاب العقول الجيوسياسية الناضجة الذين قابلتهم. وقد برز الآن كمصمم رئيسي لاستراتيجية جاكسون في مجابهته لنيكسون. وكان من الذكاء بحيث يعرف جيداً أن بعض الاتهامات التي كان يوجهها هي اتهامات ساخرة أكثر منها واقعية. وقد أثبت بيرل أنه صامد بقدر ما كان مثابراً في وصوله إلى هدفه الأكبر: إحراج سياسات الإدارة في مراقبة التسلح بجعلها تغوص في تناقضات تقنية، ومعارضة التجارة مع الاتحاد السوفييتي بجعلها خاضعة لتغييرات في السياسة السوفييتية للهجرة، وعزل الإدارة باتهامها باللامبالاة بحقوق الإنسان. وباستخدام جاكسون لتعبيرات رمزية مثل «التكافؤ الاستراتيجي» و «الهجرة الحرة»، بمساعدة بيرل التي لا غنى عنها، ركز موقفه على مسألتين تجعلاننا عملياً في موقف دفاعي. في كلا المسألتين استطاع أن يحول نجاحات الإدارة بمهارة إلى عوائق بقدرة فائقة على المناورة بمزاعم رمزية غامضة.

من يستطيع أن يعارض مبدأ «التكافؤ» في التسلح الاستراتيجي أو الرغبة في الهجرة الحرة من الاتحاد السوفييتي؟ لولا ووترغيت لم يكن أي مراقب جدي يمكن أن يعتقد أن نيكسون بسجله القوي لعدائه للشيوعية، يمكن أن يقبل بعدم التكافؤ. المشكلة هي في المعنى المراوغ للكلمة. لمّا كانت القوات الاستراتيجية للجانبين قد صممت على أساس مقاييس وتقنيات مختلفة جوهرياً فإن تعبير «تكافؤ» يؤدي، كما سأبين أدناه، إلى تناقضات وإرباكات لا نهاية لها. وهي حالة حولها جاكسون وبيرل إلى فيتو فعلي ضد المفاوضات الواقعية.

أما مسألة هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتي فقد كانت أكثر استبدادية. لقد كانت الإدارة الأمريكية قد طرحت المسألة بهدوء عبر القنوات الدبلوماسية بين البلدين ونجحت في زيادة عدد المهاجرين من 400 شخص عام 1968 إلى 35000 شخص عام 1972. وإزاء ذلك فرض السوفييت ضريبة خروج على المهاجرين، وهذا ما أزعج جاكسون الذي لم يكن له أي دور في جهودنا السابقة. ولم يطالب فقط بإلغاء ضريبة الخروج (التي وافقنا عليها) بل أن يزيد عدد المهاجرين بمقدار ثلاث مرات وأن يطلب من الكونغرس أن يرفض الاتفاقية التجارية مع السوفييت التي تمنحهم موقع «الدولة الأولى بالرعاية».

لم يشرح جاكسون أبداً ما الذي جعله يفكر أن الاتحاد السوفييتي، الذي كان يتهمه جاكسون بأنه يسعى إلى السيطرة على العالم ببرنامجه الاستراتيجي النووي، سوف يخضع لمثل هذا التحدي العلني لبنيته الداخلية بدون مقاومة. ولا سيما حول مسألة خطا فيها خطوات بعيدة لتوافق مطالبنا. كانت ضغوط جاكسون تولد أزمة مع موسكو في اللحظة الدقيقة عندما كانت الرئاسة الأمريكية تواجه لحظة أشد ضعفها منذ الحرب الأهلية، والكونغرس الأمريكي يخفض ميزانيتنا العسكرية باستمرار.

اكتسب هجوم جاكسون زخماً لأن نيكسون كان كارهاً بشدة: حقيقة أن السيناتور قد تحول إلى خصم. كان موقفنا الأول أن نحاول مواجهة انتقادات جاكسون. وهكذا عندما قدم اقتراحاً لمجلس الشيوخ عام 1972 يدعو «للتكافؤ» في مراقبة التسلح الاستراتيجي عينت موظفين كي يساعداني في صياغة مسودته، قاصداً استخدامه كنقطة قوة ضد السوفييت في الجولة القادمة من المفاوضات.

وبالتدريج فقط وعلى مضض أدركنا أن ضغوط جاكسون المتعددة كانت تُمارس من أجل إضعاف بدلاً من تحسين سياستنا الخاصة بعلاقات الشرق والغرب. وافقنا على شكوك جاكسون تجاه نوايا السوفييت، ولكننا رفضنا الإشارة إلى أننا، في المناقشة الدبلوماسية مع الرجال الكبار الصلبين في الكرملين، كنا ملتزمين بالخسارة. لأن هذا يتناقض مع خبراتنا في التفاوض معهم.

كان التأثير الأكبر لهجوم جاكسون أن يجعل من الأصعب بالنسبة إلى الولايات المتحدة السيطرة على البيئة العسكرية المتغيرة التي أوجدتها التقنية الجديدة. وقام جاكسون ومؤيدوه من المحافظين الجدد بنشر أسطورة أن نيكسون يضحي بالأمن العسكري الأمريكي بتعديل نظرية مراقبة التسلح. ولكن الوقائع كانت أكثر تعقيداً. لقد واجه نيكسون ثلاثة تحديات متشابكة: (1) بيئة استراتيجية متغيرة سببها نمو القوة الصاروخية السوفييتية والانفجار التقني. (2) معارضة الكونغرس لميزانيات دفاعية مرتفعة. (3) المفاوضات حول مراقبة التسلح، التي تمتعت بتأييد شعبي وإعلامي واسع كانت تحتاج المحافظة على ميزانيات دفاعية ملائمة.

كان نيكسون دائماً صقراً دفاعياً وظل كذلك خلال رئاسته. لم تُخفض أبداً أية ميزانية للبنتاغون من قبل البيت الأبيض في عهد نيكسون، ولم يتم التخلي أبداً عن شبكة أسلحة قائمة في أية مفاوضات أدارها نيكسون. ما اختلفنا فيه مع جاكسون والمحافظين الجدد كان يتعلق باعتقادهم الظاهر أن مفاوضات مراقبة الأسلحة يمكن أن تؤدي، في حد ذاتها، إلى إعاقة الحقائق الاستراتيجية. كانوا يطالبون بمراقبة التسلح لإفساد ما تحقق من خلال قرارات أمريكية وحيدة الجانب على مدى عقد من الزمن وعلى جعل الكونغرس يرفض مساندة بعض البرامج الاستراتيجية الضرورية، مثل الدفاع الصاروخي. وهذه كانت مهمات مستحيلة بالنسبة إلى أي مفاوض، وهي تشوش على التحدي الاستراتيجي الحقيقي الذي يواجهه الرئيس.

الحقيقة كانت، قبل وقت طويل من التفكير في مراقبة التسلح، أن تطور الاستراتيجية النووية كان يتجه نحو طريق مسدود نجم عن الهوة المتسعة بين قوة تدمير الترسانات النووية وبين أي هدف سياسي يمكن أن تكون قد وضعت من أجله. لقد أصبح ذلك الوضع لا مفر منه في الوقت الذي استلم فيه نيكسون السلطة.

منذ بداية الحرب الباردة استفاد الاتحاد السوفييتي من الانطباع العام بأنه يملك تفوقاً كبيراً في الأسلحة التقليدية. وقمعه الصارم لانتفاضات برلين عام 1953، وثورة هنغاريا عام 1956، والاصلاح

التشيكي عام 1968 عززت الهالة المرتبطة بالتعداد الهائل الواضح للجيش الأحمر. ولكن عند بداية السبعينات توازنت القوة التقليدية السوفييتية مع تفوق أمريكا بالقوة النووية الضاربة بعيدة المدى. ذلك الحد الأمريكي بدأ الآن يتراجع تدريجياً نتيجة لتقدم السوفييت في مجال التقنية النووية. وقد جرى ذلك على ثلاث مراحل.

كانت الأولى في فترة احتكار أمريكا النووي من عام 1945 وحتى عام 1950 عندما كان لدى الولايات المتحدة القدرة على تدمير الاتحاد السوفييتي دفاعاً عن المصالح الأمريكية الحيوية بدون أية خشية من انتقام ذي شأن.

وامتدت المرحلة الثانية من بداية الخمسينات إلى حوالي عام 1970، والتي بدأت عندما طور السوفييت أسلحتهم النووية الخاصة بهم. ومع هذا فطالما كانت قدرة الاتحاد السوفييتي على إيصال هذه الأسلحة متخلفة في حين أصبحت قوات أمريكا الاستراتيجية أكبر بكثير وأعلى قدرة، فقد اكتسبنا ما كان يدعى فنياً بقدرة «الضربة الأولى». وهذا يعني رداً على أي هجوم تقليدي روسي، أن ندمر القوات الاستراتيجية السوفييتية والقدرات القتالية للسوفييت بخسائر محتملة من جانبنا.

بدأت المرحلة الثالثة عندما رد القادة السوفييت على إذلال امتلاكنا القدرة على الضربة الأولى بافتعال أزمة الصواريخ في كوبا عام 1962 وبناء ترسانة ضخمة من الصواريخ الاستراتيجية بعيدة المدى من صنعهم. وفي أقل من عشر سنوات بنى السوفييت 1400صاروخ في صوامع أسمنتية لتحل محل قوتهم الصاروخية القديمة التي تبلغ 210 صواريخ من النوع الهش والقابل للعطب والمنصوبة في العراء. عند هذه النقطة بدأت كلفة الحرب النووية الاستراتيجية تعني مستويات غير مقبولة من الدمار لكلا الجانبين، مهما كان تعداد هذه الصواريخ لدى كل من الطرفين.

تعمقت هذه الأزمات عام 1962 عندما تبنى روبرت مكنمارا، وزير الدفاع، استراتيجية «الدمار المؤكد» التي تبني الردع على حساب مستوى ما من التدمير المدني والذي يكون مقبولاً نظرياً من قبل الاتحاد السوفييتي. هذا المفهوم الأكاديمي أساساً يفترض مسبقاً رغبة غير محدودة للإيقاع بالضحايا المدنيين، يقدر الحد الأدنى لعددهم بعشرة ملايين. هذه الاستراتيجية الحرفية حسبت كل شيء عدا الرغبة في اللجوء إليها. من المحتم أنها أوجدت ثغرة ضخمة ما بين قدرتنا العسكرية المرعبة والقناعات الأخلاقية لأي زعيم أمريكي مدرك. الهجوم المتعمد الشامل على الأهداف المدنية يثير أشد الحساسيات الأخلاقية، في حين أن أية محاولة، في مستويات متفوقة من القوات الاستراتيجية لتدمير قدرات الخصم النووية من المؤكد أن تجابه بانتقام يقع على أهدافنا المدنية.

بدرجةٍ ما أثارت هذه الأزمات النووية كوابح لدى الأمريكيين من اللجوء إلى حرب نووية، بقدر ما زادت من احتمال لجوء السوفييت إلى الابتزاز، وهي مشكلة قد تتفاقم حتماً مع تنامي الترسانة العسكرية

السوفييتيـة. ولما كانت الاستراتيجية النووية تتحول إلى صيغة للردع، فإن الأرجحية التقليدية السوفييتية قد ظهرت مرة ثانية كتهديد مهيمن.

هذه كانت الأزمة الاستراتيجية الحقيقية التي واجهت إدارة نيكسون فيما كانت تتزايد الرؤوس الحربية النوويـة لـدى كلا الجانبين. ليس اتفاقيات مراقبة التسلح التي جـرى التفاوض حولها في جنيف هي التي عكستهـا ولـم تستطع أن تدمرهـا. ولم يحدث ذلك في أي مـن الإدارات التي تلت. اتخـذ نيكسون سلسلة مـن الخطوات لتحسين التكافؤ الاستراتيجي: فقد أمر بأن يكـون التخطيط لأي حرب بعيداً عن الأهداف المدنيـة وتوجيهه نحـو الأهداف العسكريـة، وبنى قواتنـا الاستراتيجية بدفـع انتشار الرؤوس الحربية المتعـددة واقتـرح دفاعاً بالصواريخ البالاستية على الكونغرس ـ قبـل أن يطرح ريغان عام 1983 «مبادرة الدفاع الاستراتيجي» (SDI)، ولو على أساس تقنية أقل كفاءة.

مراجعة التخطيط العسكري أمر مجهد. وكان الوزير ليرد مهتماً جداً بالحيلولة دون تخفيض الكونغرس لميزانيـة الدفاع، وإعطاء اهتمـام أكبر لتبني المفاهيم الاستراتيجية. وبالإضافـة إلى ذلك، فإن تضافر ضغـوط الكونغرس على ميزانية الدفاع والتطويـر المستمر لأنظمة الأسلحة جعل الدوائرَ العسكرية معنية أكثـر بحماية مشروعاتها المفضلة من تطوير استراتيجية جديدة شاملة. وكان البنتاغون في الوقت الذي يقاتل فيه من أجل حياته في مواجهة الكونغرس، غير مستعد للمخاطرة ببرامجه القائمة من خلال مجابهات نظرية حـول استخدام الأسلحة النووية. ولقد استغرقت مراجعة «الخطـة العملياتية المتكاملة المنفردة» «SIOP»، أو خطـة الحرب الاستراتيجية، الجـزء الأكبر من فترة ولاية نيكسون. ومع مرور الوقت استُكملت علـى يد الوزير جيمـس شليسينغر بعد 5 سنوات، والزيـادة في عدد الأسلحة والتحسينـات التقنية حالت دون تخفيض مهم فـي الخسائر المدنية حتى ولو خُفّض عدد الأهداف. واجـه بناء القوات الاستراتيجية الأمريكيـة معارضـة من الكونغرس في فترة حرب فيتنام، ولم تنجـح إدارة نيكسون في مواجهة محاولات الكونغرس (التي تزعمها السيناتور الليبرالي الجمهوري إدوارد بـروك) من أجل إيقاف تجارب الرؤوس المتعـددة ـ التي تعرف اختصاراً بـ MIRV ـ والتي كانت ضرورية لتحقيق التوازن تجاه التقدم السوفييتي في عدد قوات الصواريخ بعيدة المدى آنذاك وبالنسبة للعقد القادم حيث ما تزال تتزود بالرؤوس الحربية المنفردة. ولما كانت اعتمادات المشروع قد تمت الموافقة عليها أثناء ولاية جونسون، لم يستطع الكونغرس توفيـر الأغلبية لإيقافه. وهذا لم يمنع أقلية محددة من انتقادنا على أساس افتراض لا دليل عليه وهو أننا إذا أنكرنا التجارب فسيفعل الاتحاد السوفييتي الشيء ذاته.

حقـق الكونغرس نجاحاً أكبر في معارضته للنظام الدفاعي للصواريخ البالاستيكية المضادة (ABM)، الـذي طرحه نيكسون فـي شهر نيسان 1969 لأسبـاب استراتيجية وفلسفية. في عصـر المخزونات النووية الاحتياطية المتزايدة اعتبر نيكسون أنه من غير المعقول أن نترك الشعب الأمريكي مُعرّضاً كلياً لاحتمالات

متوقعة الحدوث، كالاصدامات أو الهجمات النووية المحدودة، أو المخاطر الناجمة عن القدرة النووية المتنامية للقوات الصاروخية. وأراد أن يحرر السوفييت من أية محاولات للمخاطرة بهجوم نووي محدود.

ولكن غالبية العلماء بشؤون الدفاع، وحركة السلام، ومعظم وسائل الإعلام وقفت ضد الاقتراح الذي لا سابقة له ـ والعدمي ـ القائل إن القابلية الشاملة لتعرض السكان المدنيين للخطر أمر أساسي لأمن الأمة. وسرعان ما تعرض مشروع نيكسون للصواريخ البالاستيكية المضادة (ABM) إلى هجوم شديد لعدة أسباب غير متوافقة:

إنه لن ينجح، وإنه قد يعمل على إغراء السوفييت بالقيام بهجوم استباقي، وإن من شأنه أن يضر بالعلاقات مع موسكو بشكل ما، وليس من المهم أن يكون الاتحاد السوفييتي قد نشر منذ زمن طويل شبكة صاروخية دفاعية، وإن لم تكن فعالة جداً.

كمثل مياه تسقط على حجر شقت الإجازة النهائية لهذا المبدأ طريقها إلى الكونغرس. في عام 1969 أجاز مجلس الشيوخ بأغلبية صوت واحد هو ـ صوت نائب الرئيس ـ برنامج نيكسون لبناء اثني عشر موقعاً دفاعياً. وفي السنوات التالية، كما لاحظنا، قلص معارضو البرنامج في الكونغرس هذه القواعد عن طريق التخفيضات السنوية لبضعة مواقع لصواريخ ABM حتى لم يبق منها عام 1972 إلا موقعان. (وبعد عقدين من الزمن عانى برنامج ريغان المعروف باسم SDI المصير ذاته). وبدأ البنتاغون، الذي وقع في مصيدة نظام لم يعد له أية قيمة استراتيجية، يعالج الدفاع الاستراتيجي كواحد من أوراق المساومة القليلة المتبعة لدينا، نحاول عن طريقه أن نقلص المزيد من الانتشار الهجومي السوفييتي.

في وجه جميع هذه العقبات استطاعت إدارتا نيكسون وفورد أن تحققا زيادة مهمة في القوة الاستراتيجية الأمريكية. فعن طريق بناء 500 موقع جديد لصواريخ ICBM (كل واحد منها بثلاثة رؤوس) من نوع مينيوتمان 3، و500 غواصة جديدة قاذفة للصواريخ نوع (بوزيدون) التي يحمل كل واحد ما يتراوح بين 10ـــ 14 رأساً حربياً، كما زادت الولايات المتحدة عدد رؤوسها الحربية من 1700 رأس عام 1970 إلى 7 آلاف رأس عام 1978. وتمت الموافقة على بناء غواصة جديدة ـ من نوع ترايدينت ـ ذات مدى أبعد وتسليح أقوى، وشُرع ببنائها عام 1975. كما تم تطوير صاروخ عابر للقارات جديد تماماً من نوع MX. كما أُعيد بناء طائرات ب ـ 52 بشكل كامل، وقاذفتين جديدتين تفوق سرعتهما سرعة الصوت من طراز ب ـ 1، كما طورت الطائرة ب ـ 2 الخفية، كدرع واق ضد صواريخ كروز الذي أنقذه نيكسون (بتوصية مني) من تخفيض ميزانية البنتاغون عام 1973. والحق أن الأكثرية الهائلة للأسلحة الهجومية في الترسانة الاستراتيجية الأمريكية على مدى السنوات العشرين التالية قد تحققت خلال فترتي نيكسون وفورد.

ما أبطأ البناء لم يكن ضبط التسلح ولكن معارضة الكونغرس، ليس في عقد السبعينات فحسب، بل حتى أثناء بناء ريغان بعد عشر سنوات. فعندما تمت الموافقة على القاذفة ب ـ 1 في عهد إدارة نيكسون،

حيث خطط لصنع 240 طائرة، خَفّض الكونغرس بضغوط على مدى 10 سنوات العدد إلى 95 طائرة. وعندما صادقت إدارة فورد على خطة بناء MX 200، لم ينتشر منها إلا 50 بعد عشرين سنة. وخُفض عدد الطائرات الخفية ب ـ 2 القاذفة من 132 طائرة إلى 20 طائرة، كما أُلغي برنامج نيكسون لبناء 12 قاعدة، ولم يحوّل برنامج SDI الذي اقترحه ريغان إلا في مجال الأبحاث فقط.

كانت المعضلة النووية الجوهرية، بعد كل هذا البناء، أن الترسانات الاستراتيجية كانت مفيدة بالدرجة الأولى لردع هجمات نووية ولشيء يسير آخر فحسب. خيبة الأمل هذه عبرّتُ عنها بتحد غاضب في مؤتمر صحفي في نهاية قمة موسكو عام 1974: «ماذا بحق الله يعني التفوق الاستراتيجي؟ ما هي أهميته... في هذه المستويات من الأعداد؟ ماذا ستفعلون به؟[20].

الجواب النظري هو تدمير القوة الانتقامية للعدو بالضربة الأولى وإحباط الانتقام من خلال الدفاع الصاروخي. ولكن في العالم الحقيقي مثل هذه القدرة لم تُطور أبداً، وتنفيذها يتضمن مخاطر وحسابات بالغة التعقيد تفوق القدرة التحليلية لمعظم صانعي السياسة القادرين على التنبؤ. لا إدارة نيكسون ولا أية إدارة تخلفها يمكن أن تحل هذه المعضلة.

الجدل الذي طرحه جيرالد فورد قام بتلخيصه الباحث الأوسترالي كورال بيل:

> في اليمين توقع متزايد يصل إلى حد الافتراض، أو إلى خلاصة على أية حال بأن الروس يمكن بل ينبغي أن يدفعوا ثمن الانفراج بتعديل سلوكهم كلياً على الصعيدين الدولي والمحلي: بجعلهم يبتعدون عن المزاحمة في مناطق مستقبلها غامض، مثل أنغولا وتخفيف قبضتهم في المنطقة العازلة في شرق أوروبا والتصرف بمزيد من الليبرالية تجاه مواطنيهم، وكل ذلك من أجل خاطر الانفراج. لا شك أن جميع هذه الأمور مرغوبة، وليس من وجهة النظر الغربية فحسب. ولكن من وجهة نظر النخبة السياسية السوفييتية قد يبدو أقل خطراً وإحراجاً العودة ببساطة إلى حرب باردة كاملة، وذلك قد يكون منطقياً خيارهم المفضل إذا جرت الصفقة وفق هذه الشروط فحسب. وفي اليسار، يفترض توقع متزايد أنه في ظل وضع الانفراج فإن الصيغ العادية للمحافظة على قاعدة القوة الغربية يمكن بل يجب إهمالها أو التخلي عنها: أي أن ميزانيات التسلح ينبغي أن تُخفض وأن تفكك القدرة على العمليات السرية، وأن تُهمل بصورة عامة الحاجات الأمنية للسياسات الدولية.
>
> هذه في رأيي أخطاء متعارضة ومتساوية إنهم يحرفون الاستراتيجية عن الغاية التي تريد الوصول إليها: الانفراج لا يعني أن صراع القوة قد انتهى: إنه يطرح فحسب صيغة قد تجعل الصراع أقل خطراً وتوجهه نحو اتجاه بناء أكثر[21].